على تعصب طائفي ذميم ، مستترة بالوصاية الاجنبية لتحقيق اهداف خاصة · وليس هناك من غيرة على الدين ولا من يحزنون · فلا عجب والحالة هذه من الموقف الذي وقفه العهد الجديد من مطلب الدستوريين ، في حين كانت السلطة الفرنسية في ذلك الظرف بينه اكثر اعتدالا » ·

ثم يروي في الصفحة ٢٠٣ من المجلد الاول بعض تفاصيل المفاوضات مع الفرنسيين لتوقيع المعاهدة الفرنسية اللبنانية (سنة ١٩٣٧) التي اشترك فيها كل من اميل اده كرئيس للجمهورية ، وبشارة الخوري كرئيس للوفد البرلماني :

« دامت المفاوضات شهرا كاملا تحملت فيه اكبر مشقة في المناقشة بين الوفدين · وكنت اخلص النصح للرئيس اميل اده لافتا نظره الى كل نقص في النصوص ، وهو يتشبث بان تكون المعاهدة دائمة كأنه ملكي اكثر من الملك ، فرفضنا نظريته ، ورفضها معنا المفوض السامي ، وحددنا اجلها بخمس وعشرين سنة · واراد ان يتساهل في مدى استعمال اللغة العربية في الدوائر فعارضته، وصار تبادل رسائل يضمن مقام لغتنا الوطنية ، مما اثار استياء الغلاة من الفرنسيين واللبنانيين » ·

بين الاستقلال والانتداب

اذا كانت هذه المشاهد القصيرة المقتضبة تعطي صورة عن العهد الذي كان فيه الانتداب في عز سطوته ، يعين النواب ورؤساء الجمهورية ، ويغري ضعاف النفوس على توسل المناصب من سلطته ،فان الصور الاكثر بلاغة في التعبير عن اهتزاز صورة المجتمع السياسي اللبناني ذي الخلفية التعددية الطائفية ، هي تلك الصور التي يقدم لنا بشارة الخوري بعضا منها عن الفترة التي تعايش فيها الانتداب مع الاستقلال (اذا صح التعبير) اي الفترة الواقعة بين اواخر ١٩٤٣ (سنة اعلان الاستقلال الدستوري والسياسي) واواخر ١٩٤٦ (سنة الجلاء العسكري التام لقوات الانتداب الفرنسي) ·

فمع ان دولة الاستقلال كانت قد اخذت شكلها السياسي والدستوري ـ على الاقل ـ فأن هذا الشكل بقي مهتزا ابلغ الاهتزاز في كثير من القطاعات الطائفية اللبنانية . التي بقيت على امل انتصار السلطة الانتدابية على السلطة الاستقلالية الوليدة ·

في الصفحة ٨٦ من المجلد الثاني ، يروي الشيخ بشارة ما اثاره نجاح يوسف كرم في الانتخابات النيابية ، وهو حفيد يوسف كرم ابن زغرتا واهدن الذي قاتل الاتراك في القرن التاسع عشر ، ونسجت حوله اساطير من العواطف الدينية ، كالقول بان السيدة العذراء كانت تظهر دائما فوق رأسه وهو يقاتل (جثمانه ما زال حتى اليوم محنطا في احدى كنائس اهدن ، كما ينتصب تمثاله في باحة الكنيسة نفسها) · يقول بشارة الخوري :

« وما ان عرفت نتيجة الانتخابات في الشمال حتى اندفع خصوم العهد يبشرون بهذا الفوز ،صابغينه بصبغة سياسية زائفة، كأنه فوز للسياسة الاستعمارية على السياسة اللبنانية ! واندفعت الابواق التي تتلبس بالمسيحية ، تبشر بالقيامة ، وتستعد لدخول كرم المجلس بتظاهرات شعبية ·ومما اذاعته الابواق المعلومة ان ابن كرم ، حفيد يوسف بك ، سيصل الى بيروت ممتطيا جوادا ادهم بلباس جده اللبناني·واستفادت بعض الدوائر التابعة للادارات الفرنسية ، والمؤلفة خصوصا من لبنانيين ، لبث الدعاية ودفع المال وتوزيع الاسلحة ، حتى تبدأ التظاهرة ساعة وصول يوسف كرم الى بيروت ، تنقلب الى شغب ، ومنها الى ثورة دموية تجتاح العهد ، وتريح الدولة المنتدبة من هيكل الحكومة الجديدة ،